وقام ينفض ما على جسمه من غبار التقليد وينظر بعقله الى ما حوله من الموجودات واستخدمها وهكذا سار في طريق الاصلاح الى ان بلغ الكمال ان شاء الله تعالى

ولنختم هذه المقالة باختصارها في كلمات معدودة فنقول:

كل من اتى باصلاح في الارض من قبل الله تعالى فهو نبي ومحمد قد اتى بالاصلاح من قبله تعالى فهو نبي والدليل على ان اصلاحه من عند الله انه ليس مستمداً من معلومات من جاوره من الناس كما بيناه آنفا وان ما اتى به لا يقدر البشر على الاتيان بمثل جزء منه اذ لو كان مقتبساً من علمهم لكانوا اقدر على الاتيان بذلك قال تعالى (فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما انزل بعلم الله)

اذاً القرآن كتاب الله وكل ما فيه حق من عنده تعالى فيجب الايمان به والعمل بما فيه لنحوز سعادة الدنيا والآخرة. (محمد توفيق صدقي طبيب بسجن طره)

باب التربية والتعليم

شذرات من يومية الدكتور أدامس (*)

المكتوب الثاني

من إدامس الى «إميل»

فراق الولد لوالديه سنة فطرية — العلم في ألمانيا — نقد التلميذ ما يقرؤه من أفكار غيره — القصد في علوم المعقولات نفع الامة بالقيام بالواجب على قدر الطاقة — اختيار الولد العمل الذي يشتغل به بعد — بيان انه لا حرية لامة يتكالب شبانها على تولي أعمال الحكومة — التحذير من الملحدين — بيان ان الرأي العام لا قيمة له الا اذا كانت الحكومة شورى — خدمة الامة لذاتها لا للجزاء

لوندره في ١٣ فبراير سنة ١٨٦٠

اذا كنت يا عزيزي «أميل» تألم من استيحاشك فنحن نألم من فراقك ولكن يجب علينا التسليم والرضا بما لا بد منه واعلم انه لو كان في وسعي أن أبرح لوندره وأخلف من أقوم

(*) معرب من باب تربية الشاب من كتاب أميل القرن التاسع عشر

عليهم من المرض لمرافقتك الى حيث أنت الآن لكنت فيه متردداً فقد آن لك أن تتعلم كيف تسير سيرة الرجال ان الطيور تحب افراخها ولكنها متى آنست فيها من القوة ما يكفي لاستقلالها بنفسها في الطيران شجعتها على تجريب أجنحتها فيه سنة الله الذي أراد أن يحب الحرية لجميع البرايا

أنت تعلم حق العلم اني لم أرسلك الى «بُنّ» الا لاسهل عليك درس لغة الالمانيين وأخلاقهم وأفكارهم وأنا أعلم انك الى الآن قد استقللت بنفسك في تعلمك فكنت في باطن الامر وحقيقته استاذاً لنفسك ومرشداً وليس ما أخذته عني من الدروس شيئاً يذكر ولكن قد اقتضت أحوال هذا العالم أن توجد مذاهب وطرق لا بد في تعلمها أن تلتمس من بنابيعها والمانيا في يومنا هذا هي مقتبس نور العرفان وهي البلاد التي يجب أن يعرف لها الفضل في الحكمة والعلم والنقد وآداب اللغة ومدارسها الجامعة محط رحال الكثيرين من أفاضل الاساتذة وجهابذة العلماء ولست مع ذلك أدعوك الى قبول تعليمهم على غير بصيرة وتلقي أقوالهم وآرائهم قضايا مسلمة اذ لا أكون قد تخليت عن جميع الاصول التي أسير عليها ان للانسان شيئاً لا ينبغي أن يسمح به لاحد الا وهو حرية الفكر فالعلوم التي تتلقاها في الجامعة لا يمكن أن يتسع بها نطاق عقلك ويقوى بها ادراكك ما لم تراقب ما فيها من أفكار غيرك مراقبة ذاتية واياك ثم اياك أن تهمل قواك التي أنت محتاج اليها في العمل بفرط الانكباب على دراسة المعقولات بالغة ما بلغت من الطلاوة وبعد الغور فان البحث في المعقولات لا قيمة له الا اذا أدى الباحث الى وسيلة ينفع بها نظراءه والحب لنفسه من بقصر ثمرة فكره ودرسه عليها لا سراء في ان الاتصاف بالعلم من الامور الحسنة ولكن أجل منه وأحسن أن يكون الانسان محباً لوطنه نافعاً لأهله ولا يعزب عن ذهنك ان المانيا ليست بلادك وان آثار سلفك هي حكمة القرن السادس عشر وان أمك هي الثورة الفرنسية»

آلمتني عبارة من مكتوبك وهي قولك «اني أحياناً آنس من نفسي فتوراً في الهمة وضعفاً في العزيمة وأسائلها عما أصلح له من الاعمال وأنا ضائق بذلك صدراً» فاعلم انه ليس من الضروري لتحقق النفع في الانسان أن يكون من كبار الرجال فأيما رجل صدقت نيته في فعل الخير وصح قصده للنفع فانه يغير من حالة القوم الذين يعيش

فيهم بقدر تامن التغيير وعلى كل حال ليست الحياة الا نتيجة القيام بفروض صغيرة فمن أداها كلها بما فيه وسعه من الوسائل كان في الغالب أفضل ممن يسعى في الاشتهار بعمل خطير وليس شيء من أفكارنا ولا من أعمالنا بضائع علينا فان آثارها تظهر فيمن حولنا من الناس أو فيمن يخلفوننا ومن ذا الذي يستطيع أن يقول ان الحركات الكبرى التي غيرت أحوال العالم من جهة السياسة والعمران لم يكن فيها للمستضعفين الخاملين من الخدمة والعمل ما للرؤساء المسيطرين كلا بل ربما لم يكن ظهور هؤلاء وانتشارهم الا صورة منعكسة لفضائل أولئك ومساعيهم المحمودة

اقنع بأن تكون كما أنت مع مواصلة السعي في تنمية غرائزك وتوسيع نطاق مواهبك بالدأب في العمل والمدارسة وإذا احتجت في بعض أوقاتك الى تكبير دائرة وجودك فتصفح دواوين الشعراء الحقيقيين وكتب أئمة النظار المشهورين وتمتع بما تجده في نفسك عند مطالعتها من عظم القدر وسمو المكانة الذي يسري اليك منهم فان في ذلك غبطة لا يحيط بها الوصف فاذا هبطت من هذه المقامات العلى لم تصدم حولك من النفوس الصغيرة المحتاجة للاستضاءة بنور العلم من يشغلك الاشتغال بهم عن الاهتمام بغيرهم ومن صنائع البر ما فيه تسلية لك عما يحوزك من الخسائس واعلم انه لا يتألم مما في عقله من مواضع الضعف والقصور الا محب لنفسه أو خبيث وامامن يستسلم ويرضى بقسمته ويتعلم ليعمل فانه لا يطلب فوق ما قسم له من العقل شيئاً بل يكون مغتبطاً به غير حاسد لغيره

أراك أيضاً تغلو في الاهتمام باختيار ما تمارسه من الاعمال فانه وان كان مما لا مرية فيه ان لكل فرد من الناس يجب عليه أن يعيش من كسبه وكده واني أعتم لو رأيتك مفرطاً في هذا الامر الذي هو أول فرض على الانسان ينبغي أن تعلم ان جملة الدروس التي تلقاها الآن مع كونها تؤدي الى جميع الحرف لا تفتح لك باب واحدة منها ولا أرى في ذلك ما يدعو الى كدرك لان كل علم تحصله هو ذخيرة لعقلك فان لم يفدك في نفسك فقد تجد فيه وسيلة لنفع غيرك على ان ما في الكون من طوائف الامور المختلفة وطبقات الحوادث المتباينة مرتبط بعضه ببعض فلا بد في معرفة أمر منها معرفة صحيحة من معرفة أمور كثيرة فما بهذا الامر تعلق بعيد ولست بهذا القول ألزمك السعي في تحصيل ما يسمى

بالعلم العام الذي هو ضرب من الخيالات والاوهام وانما أريد به تفهيمك ان للعلوم قضايا عامة لابد لك من تصور حدودها الاصلية قبل تفرغك لتحصيل علم منها على حياله

أنت ولي أمرك في الحكم على ما يلائمك من الاعمال وليس عليّ الا أن أسألك عدم التأسي في ذلك باخوانك من الطلبة فكن كما يرشدك اليه خلقك وميلك اما طبيباً أو محامياً أو مهندساً أو صانعاً أو آلياً أو غير ذلك ولكني أسألك بالله أن لا تكون عاملا لحكومة

أي حرية ترجى لقوم يتطلع المتعلمون من شبانهم الى الانتظام في سلك عمال حكومتهم فقد كان من ظلم الحكام للناس في الايام الخالية من الفنون الصعبة الكثيرة المشكلات التي يلزم لتعلمها استعداد خاص ونفس كنفس مكيافيل (١) وأما الآن فيظهر من أحوال الرعية أنهم يعنون أشد العناية بكفاية حاكمهم مؤنة استبدادهم بالحيلة أو القهر لانهم يتهافتون على احتمال نير عبوديته فأي ملك أو عامل يجد حول أريكته رؤوساً خاضعة واطماعاً سافلة نهمة كاطماع الكلاب التي لاهم لها الا قضم العظام مادام بين يديه من الاموال الوافرة ماينفقه كيف يشاء ومن المناصب وألقاب الشرف والرتب الكثيرة مايوزعه على من يريد

ليس الالحاد والوقاحة مقصورين على احداث المانيا فانك حيثما حللت تجد من الشبان من لا يعتقدون بشيء ولا يوقرون شيئاً فكن منهم على حذر لان هذا الفسوق العقلي يساعد قطعاً على تثبيت الاوضاع القديمة ذلك ان هؤلاء الذين يدعون لانفسهم حرية الفكر لم يتخلصوا من قيد الاثرة ومن هذه الجهة تأخذ الحكومة منهم بالنواصي والاقدام أعني ان عبادتهم لنجاح مساعيهم وطمعهم في الوصول الى مايبتغون وظمأهم الى المناصب والتمتع بمرتباتها الجسيمة لاتلبث أن تدعوهم الى توقير النظام الذي سنته الحكومة واجلاله واني لأعتد بجراءة العقل مالم تصحبها بسالة النفس وتنزهها عن الاغراض ثم انه مهما كان بلوغ كل أمنية في الدنيا ممكناً بمحض هوى الغير ورضاه لم

(١) مكيافيل هو أحد رجال الحكومة الايطالية ومن كتابها المشهورين ومن كتبه كتاب الامير وهو مختصر في السياسة المفسدة للاخلاق

يعدم المستبدون عبيداً متحمسين في خدمتهم يعملون لهم ما يشاؤون وتجد من كانوا من الشبان بالأمس منطقيين متعذلقين يصبحون وهم أحقر الناس سجوداً للقوة واستكانة للسلطان .

ولاية أعمال الحكومة هي بلاء الامم في هذه الايام فالبلاد التي رئيس حكومتها هو الذي يوزع مناصبها لا يمكن أن تكون آراء الناس فيها الا نتيجة عمل حسابي لما يربح منها فاذا وقع خطأ سياسي أو ديني من الحاكم وكان ينتج للموافقين عليه بعد الحساب عشرة آلاف فرنك مثلا فانه يصير حينئذ صواباً واذا أتى أمراً خبيثاً ودفع ضعف هذا المقدار قيل انه قام هذه المرة بما تدعو اليه العظمة والبسالة فيجب الاخلاص له

يلهج الناس كثيرا بذكر الرأي العام ويقولون انه أقوى كفالة للحق والحرية وهو صحيح اذا كان أمر الامة بيدها وكانت هي التي تلي شؤون إدارتها وأما اذا كان حالها غير هذا فالرأي العام نفسه قد يكون فيها آلة للاستبداد فان أكفل وسيلة لظلم الامة هي اعدام شرف النفس من افرادها وازهاق روح الاستقلال بينهم بتحبيب الحكومة القائمة اليهم وحملهم على رجاء بقائها . وربّ قائل يقول ان عدد العمال في الحكومة لا يذكر في جانب السواد الاعظم من الامة: فأجيبه ان هذا الاعتراض عبث لانه قد نسي ان بازاء كل عامل نال منصباً ألفا من الناس يطلبونه ويرجون رجاء قوياً أن ينالوه يوماً من الايام فعالم العمال يكافئه عالم آخر من السائلين ومن ورائهم جميع طلاب الاموال واذا كان تحرير الناس من الاستبداد لا يتأتى الا متى أعانوا عليه بارادتهم فأي وسيلة تبعثهم على ارادة التنعي من ربقته اذا كان فريق منهم وهم الذين تقوم لهم الحكومة بنفقات مطعمهم وملبسهم ومسكنهم قد بلغت بهم الحال الى أن يكون استعبادهم قوام معيشتهم والفريق الآخر يغبطونهم على هذه النعمة ولا يأسفون الا على عجزهم عن مشاركتهم فيها

ولست أقصد بهذا القول ان من لوازم المناصب العامة تصغير نفوس القائمين بها أو الساعين في تقلدها حاش لله فانها في الحكومات الحرة كحكومة أمريكا مثلا من شأنها أن تنمي فيهم قوة العزيمة ومكارم الاخلاق لان الحكم في اختيارهم راجع الى انتخاب الامة ولانهم انما يمرون بالاعمال مروراً ولان جميع الولايات لا تثبت

أن يعود أمرها الى الأمة فتقلدها من تشاء ومن هنا يعلم أني لا أتكلم عن الامم التي حكومتها مؤسسة على الشورى وانما أتكلم عن الحكومة التي تولى الامر فيها بالمحاباة والهوى فشبانها يتدلون ويصغرون بسعيهم في تقلد تلك الاعمال لان حكومتها لا تبقي في الحقيقة الا نفوساً سلسة القياد تلصق بما جرى عليه العمل من التقاليد الادارية وطباعاً لينة عطفت على كل ناحية فلم تبق لها وجهة ذاتية وعقولا مثقفة ولو لم تسم عن عقول العامة تستعمل زخرف القول في تصوير ما وضع من النظام بصورة معقولة، واني لتمر بي ساعات أحدث فيها نفسي بأن من ظلم الشعوب أن يلوموا حكامهم على استبدادهم فأي معنى للومهم اذا كانوا قد جعلوا مقاديرهم بأيديهم وكان الآباء لا يتمنون لابنائهم الا المناصب ذات الرواتب العظيمة التي لا عمل فيها بدلا من صرفهم الى وجوه الكسب الاخرى بل اذا كان كل الناس يؤمنون أن يكونوا عالة على المصلحة العامة ويودون لو أن للحكومة من العقل والوداعة ما يكفي لتمنعها من الانتفاع بما يقدمونه لها من الفوائد فما أسخف عقولهم إذ جعلوا أنفسهم تراباً تم بدهشون من وطء الحكام إياهم

أنا لا أنكر أن نيل الشاب منصباً من المناصب الكثيرة المقررة في الحكومة أسهل عليه كثيراً من أن يفتح لنفسه بابا للكسب في قومه بجدارته وأهليته الذاتية ولهذا لا يلبث الانسان أن يعرف الامم التي اعتادت الارتزاق من حكومتها لما يكون فيها من فقد الاستعداد لانشاء الاعمال وابتكارها فترى الصناعة والزراعة والتجارة تتسلق في مجرى العادة بتكلف وجهد والاموال تحذر الخروج من جيوب المتمولين والتاويم التجارية التي تأبى الحكومة حمايتها يشق عليها كما يقال أن تطير بأجنحتها والصناعات الحرة تحوم حول السلطان لنيل الاعمال والمحاباة وترقب فرصة التطفل على مائدة المصلحة العامة وآداب اللغة والفنون تتأثر بقوة السلطان وتتدلى بتدلي الحياة العامة التي يحطها سلطان رجل واحد وحاجة التغذي من يده الحكومة تزيد على الدوام عدد طائفة الندمان والمتملقين

كأني بك تقول لي إن ذلك الذي وصفت عيب في شكل من أشكال الحكومة وذنب لمجموع الامة التي ترتضي هذا الشكل وانه ليس مما يعتد به كثيراً أن يزيد عدد عمال الحكومة واحداً أو ينقص واحداً لانهم جيش لا يعد، فأجيبك على هذا بأني لست أجهل

ان واحداً من الناس ليس في قدرته أن يدبر أحوال الأمة بأسرها ولكن اذا لم تكن كل فرد من افرادها على هذه الغالطة فاستسلم للتيار المحتوم الذي يسوق غيره فلا ينبغي أن يرجى شرف للاوضاع القومية ولا حرية للناس . إن الامم اذا تدلت ونشت فيها عدوى التأسي وجب على كل انسان حقيق بأن يسمي انساناً أن يرفع لها من نفسه لواء المجد ويدعوها الى النهوض فانها لا تنهض من انحطاطها الا بالمجاهدة وبذل القوة الذاتية وكم من رجل يشكو من خسة السرائر في قومه ويتألم من دناءة نفوسهم وهو شريك لهم بالواسطة في فعل ما أداهم الى هذه الحالة بكثرة خشيته وتحرجه في سيرته فاذا تنفف هو عن تولي المناصب الرسمية فمن يدها لابن أخيه أو لاحد اللائذين بيته وبهذا يصير شريكاً في الضرر الذي يندب سوء مغبته

هذه يا بني أفكاري قد افضيت بها اليك صراحة فان كنت لا بد راغباً في بلوغ منصب رسمي فوسيلتك اليه ميسرة جداً وهي أن تذل وتستكين وأما اذا فضلت كرامة نفسك واستقلالك وشرفك على المزية التي تجدها في سهولة فتح باب الكسب وسرعته فاني أهنئك عليه من صميم فؤادي ولكن لا بد لك حينئذ أن تعرف ما أنت داخل فيه فانك بتنازلك عن رعاية الحكومة تضطر الى كسب قوتك بالعمل والجهاد ولا تجد من أحد حمداً على كدك ونصبك وترى كثيراً من الناس يسخرون من بسالتك واقدامك فعلام يحبونك اذا كنت تسفههم وتزري عليهم بالنهج الذي تسير عليه في عملك وفكرك

أخدم الامة ولا ترج منها جزاء ولا شكوراً فانها لا تملك ما تجزيك به لانه ليس بيدها شيء من أموال البلاد ولا من ألقاب الشرف ولا من وسائل التنويه واعلاء الذكر وعلى انها قد تشكر مالك من حسن النية في خدمتها فليس عليك حينئذ الا الاعتماد على قواك الجسدية والعقلية . . وانه ليس في هذا الانكار للتوقع ما ينبغي أن يريعك فليست أهم مسألة للانسان في حياته أن يبلغ مقاماً سامياً بل المسألة الكبرى هي أن يكون قدره أعلى من المقام الذي يشغله

وأما أخبار البيت فنهاني لولاء عهدت الي إعلامك بأن طيورك وزهورك في حالة راضية وان دنانك بعد أن حفظت في بطن الارض مليونين أو ثلاثة من السنين سالمة من التغير قد تغيرت قليلاً من غبار لندرة ودخانها وبأنها قد رتبت مجموع حشائشك ولنها أشد لك ذكراً منك لها

وفي الختام أقول لك أنا وأمك قبل الوداع ونرجو أن تكون دائماً على علم بدروسك ومقاصدك وحالة معيشتك فكل ما يتعلق بك يعنينا . اهـ